على طريق التحرر من عبوديـــــة النقل وإعادة الاعتبار للعقل

بناء مجتمع المعـــرفة هو الفريضة الغائبة

بقلم
الشيخ الدكتور / احمد صبحي منصور

هناك مؤسسات رسمية تزعم أنها منارة الإسلام، وهناك طوائف تدعي أنها مفوضة لأن تحكمنا باسم الإسلام. وفي أماكن كثيرة من "العالم الإسلامي" تجد أولئك المتاجرين والمرتزقة باسم الإسلام. سواء من كان منهم في موقع السلطة أو من يطمع في الوصول إليها. ولقد تحول دين الله تعالى الذي نزل في رسالاته السماوية إلى كهنوت، تحول به من إسلام لوجه لله تعالى إلى ما يشبه اليهودية والنصرانية و السنية و الشيعة و التصوف والقاديانية و البهائية، حيث الكهنوت والأحبار والرهبان والشيوخ والأئمة والبابوات و القديسين والأولياء والمعابد والمزارات و الأعياد و الموالد .

نزل القرآن رسالة خاتمة من الله تعالى لأهل الأرض، لتجعل العلاقة مباشرة بين الله تعالى والناس، فالله تعالى أقرب إلى الناس من حبل الوريد، وإذا سأل عباده عنه تعالى فإنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وأنه ما من دابة إلا هو مسيطر عليها، يرزقها حيث كانت، وأنه تعالى لا يشرك في حكمه أحدا من الناس، وأنه وحده تعالى المعبود، وليس لعباده من دونه ولي ولا نصير سواه جل وعلا . وبالتالي فلا حاجة لأي كهنوت مقدس من أشخاص أو من طوائف أو من مؤسسات.. ولكن ما لبث أن عرف المسلمون الكهنوت وتقديس الأولياء والطوائف.

الاسلام له وثيقة إلهية واحدة أوكتاب إلهي واحد هو القرآن الكريم ، وقد جعله الله تعالى ميسرا للذكر ، اى من السهل أن يفهمه كل من أراد أن يهتدي به ، ومن الممكن لأى إنسان أن يقرأ و يفهم القرآن بسهولة فى ميدان الهداية حيث الوضوح لا مثيل لـه . ومع ذلك ففى القرآن الكريم مستويات للتعمق و البحث تستلزم مقدرة على البحث واستعدادا له و تفرغـا فى سبيلـه . والباحثون نوعـان : منهم من يبحث طالبـا للهداية ، وأولئـك هـم الراسخون فى العلم ، ومنهم من يبحث ليفرض رؤيته على القـرآن أو ليهدم الاسـلام بالتحريف فى المعانى وانتقـاء ما يريد وتجاهل مـا لا يريـد . وبينما يـزداد الباحـث المؤمن ببحثـه القرآنى علمـا وهداية فـان المتلاعب بالقرآن لا يزداد بعملـه إلا ضـلالا. وفى كل الأحوال فليس الباحث هنا أو هناك ممثلا لدين الله أو ناطقا باسم الله، هو يعبر عن نفسه واجتهاده ، وهدايته أو ضلاله .

وفى مجـال الاحـتراف الدينى فالباحث الراسخ فى العلم الذى يبغى الهداية و يسعى لهـا ، ملتـزما بطاعة الله جل وعلا - لا يطلب من الناس أحيـرا لأنه يعلم أنه لا محلا للاحتراف الدينى فى الاسـلام . أما الباحث التابع لدين أرضى فمهمتـه احترافية ، تتمثل فى أن يشترى بآيات الله جل وعلا ثمنا قليلا. ليقول للناس ما يحبون . وليقنع للمستديـن بما يريدون. ومجال الاحتراف الدينى واسـع وعريض . يبدأ بالتعسب بقراءة القرآن على المقابـر وسـراديق العزاء والمواكب والاحفـالات ، مـرورا بفتح (عيـادات) لممارسة الشعوذة تحت واجهة العـلاج بالقرآن، وصولا الى استغـلال الدين للسيطرة على الحكم أولاحتفاظ بـه. كل منهم يشترى بآيات الله جل وعلا ثمنـا قليلا متحديا بواهى الحـق وأوامره.

قال تعـالى : ((وَآمِنُوا بِمَـا أَنزَلْت مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُـم وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِـهِ وَلا تَشْتَـرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًـا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُـونِ)) ، وقال تعالى : (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًـا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ)) ، وقال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) ، وقوله تعالى : ((وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)) ، وقوله تعالى : ((وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)) (آل عمران 77، 187، 199) ، وقوله تعالى : ((إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)) (المائدة 44) ، وقوله تعالى : ((اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) (التوبة 9) ، وقوله تعالى : ((وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)) (النحل 95) .

ومهما بلغ ذلك الثمن ارتفاعا فسيظل ثمنا قليلا بالنسبة لما ينتظر صاحبه من عذاب هائل يوم الدين .

الاحتراف الديني أهم ملامح التناقض بين الإسلام وأديان المسلمين الأرضية

والثابت ان الإسلام ضد الاحتراف الدينى من حيث المبدأ ومن حيث التاريخ. وتتوقف هنا مع عداء الاسلام للاحتراف الدينى الذى أصبح أهم ملامح التدين فى أديان المسلمين الأرضية :

● الأنبياء رسل الله تعالى أبعد الناس عن الاحتراف الدينى، برغم وظيفة النبوة والرسالة، فالنبى لديه سبيل إلا إبلاغ الرسالة، ومن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعلى نفسه، ثم هو لا يأخذ أجرا من الناس، ولا يدعى لنفسه جاها دينيا أو دنيويا بسبب النبوة، إذ لا يدعى أن لديه خزائن الله ولا يعلم الغيب ولا يدعى أنه ملك، وإنما هو بشر، قال تعالى : ((قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)) (الانعام 50).

ولا يدعى أنه يملك لنفسه أو لغيره نفعا ولا ضرا إلا ما يشاء الله ، قال تعالى : ((قُل لَّا أَملِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) (الاعراف 188).

وبغاية ما طالب إنّه بشر ولكن يوحى إليه ، قال تعالى : ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)) (الكهف 110).

وهذا الوحى يزيد من مسئوليته أمام الله تعالى يوم القيامة، إذ يكون حساب الأنبياء يعدل حساب الأمم البشرية جميعا ، قال تعالى : ((فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)) (الاعراف 6) .

● نفى الاحتراف الدينى عن الأنبياء وثيق الصلة بعقيدة الإسلام، حتى لا يكون الأنبياء واسطة بين الناس ورب الناس، وحتى تكون عقائد الناس خالصة فى الاعتقاد فى الخالق وحده ولا واسطة أو وسيلة يعرفون أنها تقربهم زلفى، فإذا كان النبى ليس له من الأمر شيء ، قال تعالى : ((لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)) (آل عمران 128) .

وإذا كان سيتخاصم مع أعدائه أمام الله تعالى يوم القيامة على درجة إلمساواة بينه وبينهم ، قال تعالى : ((ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)) (الزمر- 31).

وإذا كَانَ سيحاسبهم أمام الله تعالى يوم القيامة مثل قومه تماما ، قال تعالى : ((وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)) (الزخرف 44).

وإذا كان لا يستطيع أن يحمل شيئا فى الحساب عن أصحابه و يستطيع أصحابه بالمثل أن يحملوا عنه شيئا من حساب ، قال تعالى : ((وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)) (الأنعام 52).

وإذا كان لن ينفع يوم القيامة أولاده و إلا أبيه ولا أقاربه ، قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)) (لقمان 33) ، وقال تعالى : ((يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)) (عبس 34).

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للنبى فإن الوحى الإلهى له بالرسالة لا يزيد شيئا فى بشريته، إذ يظل بشرا وتظل الألوهية لله وحده، لا يشاركه فيها أحد من خلقه، طالما كان الانبياء – وهم صفوة الخلق – محصورين فى دائرة البشرية، ما عليهم إلا الاهتداء بهذا الحق وعلى هذا البلاغ أجرا من البشر.

وبعد الانبياء فمجال الدعوة مفتوح أمام كل إنسان ليدعو إلى الله تعالى على بصيرة متبعا طريق النبى عليه السلام ، قال تعالى : ((قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) (يوسف 108).

ولكن إذا طلب من الناس أجرا على هذه الدعوة فقد ضل عن الهدى ، فإنه يحاول مجترا من الاحتراف الدينى ((اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ)) (يس 21) ومجال العلم بالدين مفتوح أمام الجميع، وليس حكرا على أحد، وكل إنسان يخطىء فى حكمه وبصيبه، والقرآن يحكم على الجميع، والعبرة فى الفتوى ليست بالقائل وإنما بمدى اقتراب قوله من الحق، والفتوى ليست ملزمة، ولذا فهى قابلة : كلامنا صواب يحتمل الخطأ، وكلام غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

● الإسلام – أيضا – ضد تاريخ الاحتراف الدينى الذى سبق نزول القرآن أو عاصر نزوله. ففى قصص الأنبياء فى القرآن، كان أهم خصوم الحق هم المترفون الذين يعبدون التقليد، وأعوانهم من (رجال الدين) الذين يبررون لهم أوضاعهم الاجتماعية الظالمة، ويقومون بتحريف الدين المتوارث ليرضى الناس عن ذلك الظلم الاجتماعى والفساد الخلقى، وعجلت آيات القرآن بالهجوم على أولئك المترفين المكذبين ودورهم فى تدمير المجتمع ، قال تعالى : ((وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)) (الإسراء 16).

لأنهم دائما يكذبون الرسل، قال تعالى : ((وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)) (الزخرف 23).

كما أوضحت آيات القرآن دور علماء السوء أو (رجال الدين) الذين يخدعون المستضعفين ويحملونهم على الكفر بالحق ، ((وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ)) (الشعراء 99) ، وقوله تعالى : ((يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا × وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا × رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)) (الاحزاب 66- 68) .

كما أوضح القرآن وظيفة الاحتراف الدينى فى أنها تحويل الدين إلى سلعة معروضة للبيع والشراء، ولذلك تكرر قوله تعالى ((وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا)) (البقرة 41 ، المائدة 44).

وتوعد الله تعالى من يحول الدين إلى تجارة واحتراف، بأن الله جل وعلا سيكون خصمه له يوم القيامة، ولن ينظر إليه ولن يزكيه، وسيلقى أشد العذاب ، قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) (البقرة 174) .

وقال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) (آل عمران 77) .

وتحدث القرآن الكريم عما كان يفعله بعض محترفى الدين من أهل الكتاب، وتوعد من يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، وليبيعوا حقوق الغفران وقصور الجنة للسذج، ويزعمون أنهم سيخرجونهم من النار اذا دخلوها، ويؤكد القرآن على أن من يدخل النار لن يخرج منها أبدا، قال تعالى : ((فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ)) (البقرة 79) ، وقال تعالى : ((ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)) (آل عمران 24) .

كما تحدث القرآن عن كثير من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة، وتوعدهم بالعذاب ، قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) (التوبة 34) ، وكيف حولوا أنفسهم أربابا من دون الله ، قال تعالى : ((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) (التوبة 31) .

تأسيسا على ذلك الاحتراف الدينى ، ولذلك دعا الله أهل الكتاب لإخلاص الدين لله وحده، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، قال تعالى : ((قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)) (آل عمران 64) .

أى أن القرآن الكريم فى حديثه فى نصح أهل الكتاب، أوضح أن الاحتراف الدينى يضفى القدسيه على من يجعلون أنفسهم رجال الدين، وليس فى رسالات السماء وجود لما يسمى برجال الدين، كما ليس فى دين الله تعالى كهنوت أو واسطة بين الناس ورب الناس، ومن الطبيعى أن هذا الحديث موجه لنا نحن المسلمين أيضا، كى لا نقع فيما وقع فيه أهل الكتاب، ولكننا وقعنا فى ما حذر منه القرآن.

● وعلى عكس الاحتراف الدينى الذى يجمع الأموال والجاه باسم الدين والتجارة به، فإن الدين الحق مطالب بأن يدفع أمواله ابتغاء مرضاة الله فى الزكاة، وفى الصدقة على ذوى الحقوق من السائل والمحروم والأقارب واليتامى وأبناء السبيل، وفق ما شرع الله تعالى فى مستحقى الصدقة الطوعية ، قال تعالى : ((يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)) (البقرة 215) وَالزَّكَاةِ الرَّسِيَّةِ ، قال تعالى : ((إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)) (التوبة 60) وهو أيضا مطالب بأن يجاهد فى سبيل الله بالنفس والمال ، قال تعالى : ((وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) (التوبة 41) ، وقال تعالى : ((وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)) (الصف 11) . والجهاد يتضمن القتال فى سبيل الله تعالى لصد العدوان و ليس للعدوان ، للدفاع عن النفس وليس لبسط حرب على من لم يعتدى على المسلمين ، كما فى قوله تعالى : ((وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)) .

وقوله تعالى : ((الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ)) وقوله تعالى : ((لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)) (البقرة 190 ، 286، 194).

وفى كل الآيات القرآنية التى تحض على الجهاد بالأموال والأنفس فى سبيل الله، كانت الأموال مقدمة على الأنفس لتأكيد أن الإسلام يفرض على المؤمن أن يعطى الأموال فى سبيل الله، لا أن يتكسب الأموال بالتجارة فى دين الله.

وحتى فى الغزوات نزلت سورة الأنفال بعد غزوة بدر تنهى عن التنازع فى موضوع الغنائم، والأنفال هى الغنائم، وتحذر المؤمنين من أن يكون هدفهم من الجهاد هو المتاع الدنيوى، ولم يستوعب المؤمنون هذا الدرس فانهزموا فى غزوة أحد بسبب الغنائم، ونزلت آيات سورة آل عمران تؤكد على نفس التحذير.

قال تعالى : ((وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)) (آل عمران 152) .

وبعدها تعلّم المؤمنون الدرس، أن يكون الجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاة الله، وليس لهدف دنيوى، فلم يتكرر منهم خطأ غزوة أحد فى الغزوات التالية فى عهد النبى.

● وهاجم القرآن الاحتراف الدينى فى قريش، وأوضح أنه السبب الحقيقى وراء عناد المشركين، فالمشركون فى حقيقة الأمر يعلمون أن ما جاء به محمد عليه السلام هو الهدى، ولكن مصالحهم التجارية المرتبطة بالإحتراف الدينى هى السبب فى عنادهم ، وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) (القصص 57) .

فهم يعلمون أنه (هدى) ، ولكن مكانتهم فى الجزيرة العربية قامت على أساس البيت الحرام، وما أقامته قبائل العرب حول الكعبة من أصنام، وقيامهم على رعاية هذه الأصنام جعل طريقهم آمنا بين اليمن والشام فى رحلتى الشتاء والصيف، وإذا اتبعوا الهدى فلن يكون للأصنام بقاء حول الكعبة، وبالتالى ستقطع القبائل العربية عليهم الطريق أمام رحلتى الشتاء والصيف، وستهدد مكانتهم وموضعهم فى مكة وخارجها، ولهذا رفضوا أن يتبعوا الهدى مع النبى حتى لا يتخطفهم الناس من أرضهم، وبمعنى آخر فإن احترافهم الدينى من وجودهم حول الكعبة أقنعهم بالباطل أن رزقهم يكمن فى تكذيبهم للقرآن، لذلك قال تعالى لهم (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) (الواقعة 82).

ومن خلال الاحتراف الدينى نستطيع إعادة قراءة تاريخ المسلمين قراءة صحيحة ونستخلص ما يلي :

1- ان عتاة الاحتراف الدينى فى مكة هم الأمويون وبنو عبد شمس الذين كانوا قادة رحلتى الشتاء والصيف، بالإضافة إلى عم النبى، العباس بن عبد المطلب، القائم على سقاية البيت الحرام. وقد ظل العباس فى مكة، وشارك مع المشركين فى غزوة بدر ضد المؤمنين، ووقع فى الأسر. وظلت زعامة مكة بعد الهجرة بين أبى سفيان والعباس، وحين أدرك العباس أن ملك ابن اخيه محمد قد استقر، دخل فى الإسلام قبيل فتح مكة، وأقنع صديقه أبا سفيان بالدخول فى الإسلام وجيش المسلمين يزحف نحو مكة. وشعر العباس وأبو سفيان بالضيق عندما تولى أبو بكر الخلافة، وكان أبو سفيان يمتعض لأن الخلافة نالها رجل من أقل بيوت قريش مكانة، وكان العباس يحرض علي بن أبي طالب على طلب الخلافة، وهما معا (العباس وأبو سفيان) عاشا أغلب عمرهما فى الاحتراف الديني، ولا يفهمان الإسلام بمثل ما كان يفهمه على وأبو بكر وعمر وبقية أعلام المدرسة النبوية.

2- وفى الوقت الذي اضمحل فيه صوت الاحتراف الديني في مكة بعد دخول أهلها فى الإسلام أفواجا، علا صوت الاحتراف الديني في نجد من خلال حركات الردة وادعاءات النبوة، وكان إخماد حركات الردة أسرع طريق عاد به الأمويون إلى القيادة والصف الأول فى قيادة المسلمين ، بعد أن كانوا قبلا فى الصف الأول ضد الإسلام. فالأمويون بما لديهم من مهارة حربية وكفاءات قيادية وخبرة بالطرق التجارية، وحرص على الزعامة والرئاسة تولوا قيادات الجيوش التى أخمدت حركات الردة فى نجد وغيرها. ولم يجدوا لهم منافسا فى القيادة بين كبار الصحابة والسابقين فى الإسلام، لأن التنافس على الزعامة والجاه لم يكن مما تعلموه فى مدرسة خاتم النبيين عليه السلام. وانتهت حركة الردة بأن أصبح الذين أسلموا بالأمس قادة منتصرين لجيوش المسلمين وزعماء يشار لهم بالبنان.

3- خشي أبو بكر فى خلافته أن تعود قبائل نجد للثورة والردة، فأراد أن يصدر شوكتهم الحربية إلى خارج الجزيرة العربية. فكانت الفتوحات العربية فى الشام والعراق وإيران ومصر، وهى التى حملت الاسلام مع تناقضها مع شريعته التى تنهى عن الاكراه فى الدين والاعتداء على الغير. لذا كان أغلب المشاركين فى الفتوحات العربية من القبائل النجدية التى سبق أن ارتدت ثم أعيدت للاسلام، وكان أغلب القادة من الأمويين الذين كانوا بالأمس أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ثم أصبحوا قادة لهم. وأسرت القوات العسكرية كل طوائف دينية وجاهم فى سبيل شمال الإ يمن جنوبا.

وقد وقع قبل البلاد المفتوحة تحت سيطرة الأمويين وحلفائهم ممن دخل فى الاسلام حديثا ، ففى خلافة عمر كهم معاوية الشام وحكم عمرو بن العاص مصر وشمال أفريقيا. وتمكن عمر من ضبط أحوال الولاة ومنع العرب من الاستمتاع بخيرات الفتوحات، ومن الظلم، لكن الأحوال تبدلت فى خلافة عثمان الأموى الأصل.

4- وفى خلافة عثمان عاد للظهور دور الاحتراف الديني فأدى الى ما يعرف بالفتنة الكبرى التى أسفرت عن قتل عثمان، والتى لا تزال تلازم تاريخ المسلمين حتى الآن، وتسفك دماءهم، وتؤخرهم وتباعد بينهم وبين الإسلام الذى أعمى عن نفسه بصوت عال من خلال المعارك والاضطهادات الدينية والعنصرية، وخفت صوته فى التأصيل الفكرى، فلم ينتج من ثمرات الأمويين الفكرى إلا مذهب المرجئة، واضطهاد القائلين بالحرية الفردية ومسئولية الظالم عن ظلمه. حيث اعتنقت الدولة الأموية مذهب الجبرية، وفسرت من خلاله ما تفعلـه من ظلم وسفك للدماء، بأن ذلك قدر لا فكاك منه، واضطهدت القائلين بمسئوليتهم عن الظلم، وأستهم الظلم. وكان كل ذلك هو ما تبقى من التأصيل الفكرى للاحتراف الدينى الأموي، وهو قليل وتافه بالنسبة للتأصيل الفكرى لخصوم الأمويين، من الشيعة والخوارج.

6- بدأ التأصيل الفكرى للاحتراف الدينى لدى الشيعة مبكرا، فالشيعة السبئية بدأت فى خلافة على، وازداد التشيع بمذبحة كربلاء، واشتد بمقتل الثوار من نسل الحسين على الدولة الأموية، وتفنن الشيعة فى التقية والدعوة السرية وتكوين الخلايا تحت الأرض، واحدى هذه الدعوات رفعت لواء الدعوة للوصي من آل محمد، حتى لا يتعرف الأمويون على رأس الدعوة.

ومما لـه دلالـة أن الدعـوة انتقلت بطريقـة غامضة من صاحبها العلوي إلى حفيد عبد الله بن عباس، وكذلك أقام الشيعة دولة للعباسيين، واكتشفوا ذلك بعد فوات الأوان، وتحول الشيعة إلى خندق المقاومة الذى كانوا فيه من قبل، وتكررت ثوراتهم وثورات العلويين ضد أبناء عمومتهم العباسيين، وبعض هذه الثورات أقامت لها دولا فى شرق إيران وفى شمال أفريقيا ومصر (الخلافة الفاطمية) كما نجح أعراب نجد فى إقامة ثورات ودول تحت شعار الزنج تارة والقرامطة تارة أخرى، ونشروا الخراب وأنهار الدماء فى ما بين العراق والشام وطريق الحجاج والحجاز.

على أن التأصيل الفكرى لهذا الاحتراف الدينى العباسى والشيعى والخارجى كان عالى الصوت يماثل ضجيج المعارك بين الفرقاء والمتصارعين . وساعد عليه أن التأصيل الفكرى للشيعة بدأ مبكرا قبل الدولة الأموية نفسها، ثم شهد عصر التد